



في منزل الوحي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

—>>><<<—

لعل فريضة من فرائض الإسلام وشماره لم تخدم الثقافة الإسلامية، وتنفع الأدب العربي كما خدست في ذلك فريضة الحج وأفادت، فإن جل الذين كتبوا الرحلات، وألفوا في التاريخ الإسلامي خصوصاً تاريخ بلاد العرب، ووصف طبيعتها وجغرافيتها وتقويمها، هم من الذين كانوا يقصدون إلى أداء الفريضة المقدسة، وزيارة الروضة المطهرة. وكتاب «في منزل الوحي» إنما هو أثر من تلك الآثار التي فاض بها الشعور الإسلامي، والاتجاه الروحي نحو تلك البلاد الطيبة التي تنزع إليها النفوس، وتهفو نحوها الأرواح، وتطمئن بذكراها القلوب. وقد وصف المؤلف الفاضل كتابه وتحدث عن القصد الذي قصده من تأليفه فقال: «وليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب، إنما هي وقفات وقفها في بلاد الوحي ومنزله، أستوحى فيها مواقف محمد عبد الله ونبه ورسوله، وهناك في هذه المواقف تجردت نفسي وسمت روحي وكررت بالصور والقرون أطوبها، ورحت أتمثل هذا الهادي الكريم، وأتمثل المسلمين من حوله، ألتبس في ذلك الأسوة والعبوة، آملاً أن أشرك فيهما إخواني المؤمنين بالله، وبما جاء من عند الله. لم أتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله الكريم، ولم أخضع تفكيري لحكم غيري، وما كان

لي أن أخضعه، فقد كنت أحس في كثير من هذه المواقف أنني بين القوم أسمع وأرى، وأتمنى لو كنت أجاهد معهم، فأفوز فوزاً عظيماً، وما كان لي أن أفعل ثم أخدع نفسي فأزعم أنني إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به في حين لا أقص إلا ما رأيته غيري، وما سبقني إلى تسطيره. لقد تركت نفسي على سجيته تتوجه بروحي روحي، ونستلهم الحق بمحاولي، ونستعرض ما تستلهمه على حكم عقلي وتقدير ضميري، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لأبني به إلا رضا الله»^(١)

هذا كلام المؤلف الفاضل في وصف كتابه، وهو كلام، على ما أرى، فيه شيء من التواضع يغطي جانباً من الحق؛ وقد تكون هذه نية الدكتور هيكل في تأليف كتابه، أرادته على أنه «ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب وإنما هي وقفات في بلاد الوحي ومنزله» ولكنه على ما يظهر غلب على أمره نجاة كتابه مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، وجاء خير دليل يجب أن يصحبه كل راحل إلى تلك البلاد، وجاء أيضاً من أهم التقاويم لكثير من الأماكن في بلاد العرب، ثم جاء مشروع إصلاح قويم بهم من يهمهم «العناية بهذه البلاد المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة، وما يدعو المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد»^(٢)، ثم هو فتحة روحية من أثر الرسول الكريم فاض بها قلب خافق وشعور دافق. فإذا كانت نية الدكتور هيكل على ما ذكرنا من قبل، فلا شك أنه قد غلب على أمره، وتجاوز دغبته في إخراج كتابه، وتحديد الموضوع

(١) ص ٢٠ من الكتاب

(٢) ص ٢٩ من الكتاب

الذى أراد أن يجرى في حبلته ؛ وهو تجاوز قد اقتضته طبيعته ، ودفعته إليه صناعته ، فكان ذلك من حظ المرية وحظ قرائها وحظ رواد تلك البلاد المقدسة

نعم ! هو تجاوز اقتضته طبيعة هيكل ، لأن هيكلًا كما نعرف صحافي ، والصحافي من طبيعته لا يقف عند شيء ولكن يجب أن يقف على كل شيء ؛ ثم هو أديب دقيق الشعور وافر الإحساس يتأثر ويحتاج لكل ما يراه ويقع عليه حسه ، فإذا وصف أضنى على وصفه الإحساس والشعور وخلقه خلقًا حيًا كاه الروعة والجلال ؛ ثم هو عالم ناقد ينظر إلى كل شيء بعين فاحصة ، وفكر صائب وتقدير شديد ، وهذه الغريزة في نفسه هي التي جعلته يقول ما يقول عن حق « إن لحكمى المكان الأول من الاحترام عندى ، وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت المجلة طليشًا غير جدير بمفكر يحترم عقله فليس من حسن القصد ولا من احترام الفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه ، ومن الجلود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعًا حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيع من الحق فيها ^(١) »

وأحب لك أن تتأمل الكتاب بنفسك ، وأن تصحب مؤلفه الفاضل من « عزم السفر » حتى « أوبة الرضا » فستقضى في ذلك سفرة سميدة ، ورحلة طيبة ، يسعد فيها عقلك بكثير من العلم والمعرفة ، ويفوز منها قلبك بكثير من البهجة والانشراح ، وتطيب بها روحك على خير ما تطيب به الأرواح من ذكر الماضى وأثر الدين ؛ غير أنى أحب لك أيضًا أن تكون صبوراً مع هيكل ما وسعك الصبر ، إذ تراه يسير سيراً بطيئاً فيقف بك عند كل أثر من آثار الرسول ، ينبش الماضى ، ويسأل التاريخ ، ويفحص العالم ، ويستوحى الروح ، ويحكم العقل ، ويقارن بين ما يرى وما يسمع ، فإذا طفت معه مثلاً في أنحاء مكة الحديثة ، فكان شديد الاختلال إذ تراه يدخل بك في كل زاوية ، وينطفئ بك على كل ثنية ، وينحدر بك إلى كل منار ، ويرتفع بك إلى كل

نجد ، ويدفئك دفماً حتى بين النوى والأثافي ، والأحجار والصخور ، ويقف بك عند كل أثر ظاهر ، وكل مظهر قائم . وإذا ما صحبت هيكل مثلاً إلى أسواق العرب قاصراً إذ تجده يطيل عليك فيحدثك عن الأسواق الثلاث في اليهود القديمة ، ويتلمس لك موقع الجنة وموقع ذى المجاز ، ويكشف لك عن أسباب الخصومة في الأسواق العامة ؛ ثم يحدثك عما كان يجرى في عكاظ وعن موقف النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السوق ، ثم يسرد الأقوال التي قيلت في ذلك من قبل محاولاً أن يطبقها على ما يرى وأن يقيسها بمقياس العقل . نعم أحب لك أن تكون صبوراً مع هيكل إذا رأيت في جميع المواقف يبحث ويتقصى ويطيل النظر والتأمل فإنه إنما يقف بك على آثار ومعالج حياة قوم ملأوا الدنيا بمجدهم ، وأسعدوا العالم بهديهم ، وأنعموا التاريخ بذكورهم . أما نفس هيكل في هذه المواقف فهي نفس مطمئنة يقول هو عنها بأنها « قد سمت إلى حيث لم نسم من قبل قط ^(٢) » وهو يحدثك عن شعوره في ذلك فيقول : « رأيت نور الله مائلاً في كل دقيق وجليل من خلقه ، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدا كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته ، ورأيت سنته في الكون تبدى لكل من أخلص إلى الحق وجهة ثابتة لا تبدل لها ، رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيماناً بما يقع عليه حسي ، وما تلمسه بدى ، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية ^(٣) » وما نفس هيكل في ذلك وشعوره إلا طراز من النفس السامية على حقيقتها ، وتمط من الروح الشرقية التي تعبد الدين أبداً ، وتقديس المعنويات أبداً ، إذ ترى سعادتها في الروحانيات أكثر منها في الماديات

والظاهر أن هيكلًا في حياته الروحية الجديدة قد اتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً ، وتنذى بالفاظه وأسلوبه كما تنذى بمعناه وروحه ، وإنك لتلمح أثر ذلك واضحاً جلياً في تعابيره خصوصاً إذا ما تحدث عن معاني الإسلام تتمر القلوب ، وسمو الإيمان بنهر الأرواح والنفوس . انظر إليه وهو يصف الحجاج محرمين في طريقهم إلى مكة فيقول : طبع هذا المنظر أعمق الأثر في نفسي

فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو في ربها الرجاء الأسمى ... ليس يذكر أحدهم ماله من ثروة أو جاه أو ولد ، وإنما يذكر أنه هو وهؤلاء المسافرين معه إخوة في الله وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته ، ملينين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم وليطهروا بين يديه مما قدمت أيديهم ، وليبدؤا بذلك حياة جديدة يبتغون فيها أنام الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ويحسنون كما أحسن الله إليهم ، ولا ينفون الفساد في الأرض . لهذا جاءوا من كل فج عميق ، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالشفقة ونسوا كل شيء إلا الله ، ولهذا أحرموا آية إخالهم ومساواتهم إيداناً بأن أقربهم إلى الله أنقام ، ومظهراً ليلادهم الروحي الجديد ، ليتخذوا من هذا الميلاد عدتهم لحياة جديدة ، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم ، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاهم في جوار وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته ، إنه يفرغ الذنوب جميعاً ، لا يفرغ أن يشرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء^(١)

فهيكلك كما ترى مولع بآيات القرآن يقتبسها لأسلوبه ؛ ويقحمها في عباراته ، ويستخدمها استخداماً طلياً منسججاً يدل على مهارة ويمكن . ولقد بلغ من ولعه بالفاظ القرآن أن أثر كلمة « طوع » على مرادفها في الاستعمال ، فعبّر بها مراراً إلى حدّ يلفت النظر ، حتى أنه ليستخدمها في مواضع قد تكون مرادفاتها أولى بها ، وقد لا تؤدي المعنى إلا على شيء من التسامح ، ولكن هيكلها يؤثرها لأنها لفظة قرآنية فهي حارة سائلة . وإن من المجيب حقاً أن يؤثر هيكل ألفاظ القرآن كل هذا الإيثار ، وأن ينتفع بأسلوبه إلى هذا الحد الذي يفوق فيه أولئك الذين شبوا على مدارس القرآن ، وقضوا أعمارهم في مزاوله عباراته والبحث في نصوصه على حين أنه قد نشأ نشأة مدنية كما يقولون ، وتثقف ثقافة تتصل بالغرب أكثر مما تتصل بالشرق ، وما آتاه الأولى إلا لون من ألوان تلك الثقافة الأجنبية . وإنما يسر لهيكل أن يندمج في حياته الروحية كل هذا الاندماج ، وأن يتصل بثقافة القرآن وأسلوبه كل هذا

الاتصال ، أنه ذو موهبة فنية ، وطبيعة أدبية صافية ، والأديب إذا ما صفت طبيعته ، وخلصت نفسه ، ينطبع على الحياة التي يريدها وكأنها حياته التي تعودها حياته ، ويفنى في البيئة التي يلبسها فإذا هو صورة قوية رائحة لما فيها من الألوان والمظاهر ، ويخضع حواسه في الانفعال للذاكرة يريد تنفيذها فينجلي لك صادق الأحساس صحيح الفرض ، وهذا هو السر في أنك ترى الكاتب أو الشاعر يدرج بين سخور البادية وعلى أشواكها فتلح في أسلوبه وتفكيره الشدة والجفوة ، ثم ينتقل إلى مطارف الحضارة فإذا به هين لين مذلل الفكر يجري أسلوبه في مثل رقة الماء والهواء . وهذا هو السر أيضاً في أنك ترى الكاتب أو الشاعر يتحدث مثلاً عن البؤس فيجيد الحديث على أنه ليس يائس ، ويقول في النسيب والغزل فيملك عليك نفسك مع أنه ليس بغزل ولا محب ، فكيف بذلك الأديب أو الشاعر إذا كان صادق الماطفة ، خالص الرغبة ، صافي النفس والروح كهيكلك في حياته الجديدة ؛ لا شك أنه يكون شيئاً كبيراً ، ويكون أثره أثراً قوياً رائماً كهيكلك « في منزل الوحي »

وأما بعد فقد أطلت على القارئ ، ولنا وقفة أخرى مع « هيكل » في منزل الوحي سيري القراء فيها لوناً طلياً من ألوان الفكر الروحي الذي يحترم العقل ويعجد الحق

محمد نسيم عبد الباق

نناكر يائس

ديوان بالثر الفني . له مقدمة في الأدب بين العلوم
وتعميد في الشعر بين النظم والنثر

بقلم

عبد المجيد مصطفى خليل

يباع بخمسة قروش في مكاتب النهضة والانجلو والمعارف
بالقاهرة ، وفيكتوريا ومنير بالاسكندرية